أما لو كان ذاك القبح حسناً لما أشناكِ عن حسن الخلالِ
ويقبحُ أن يُذَمَّ قبيحُ وجهٍ اذا ما كانَ محمود الفعالِ
وأفضلُ ما تحلّى النفسُ خلقٌ تحلى بالفضيلة والكمالِ
وأمّا الحبُّ فهو يقيمُ إلاّ اذا دخل الفسادُ على الخصالِ

القاهرة نقولا رزق الله

[المقتطف] اراد الشاعر بغادة المرآة الفتاة التي تكثر من التصنع والتبرُّج فانكر ذلك عليها كما ينكرهُ كل عاقل لكنهُ عيب محتمل لا يقابل بالخلو من حلية الادب . ولا يأس بانتقاد العيوب فانهُ يمهد السبيل الى هجرها . وحبذا لو اتحفتنا احدى ربات القلم بانتقاد مثل هذا لعيوب الرجال فان الشيخ الهمَّ منهم يتقن الخضاب حتى تظنهُ في عهر الشباب . والشاب المفتون يضيع صحتهُ ومالهُ وراء كل قبيح وجههُ حسن . واذا وازن المنصف بين عيوب النساء وعيوب الرجال قال كما قال احد الظرفاء " الكل في الهوى سواء "

باب التقريظ والانتقاد

تاريخ حياة اميل زولا

جارى النابغون من اسرائيلي المشرق اخوانهم النابغين من اسرائيلي المغرب في الاثراء ولكنهم لم يجاروهم حتى الآن في دواوين الانشاء . وكنّا كلما فكّرنا في اهمالهم للانشاء العربي نظن سببهُ وعورة العربيَّة ورغبة الناس عنها في هذا العصر فجاء هذا الكتاب بشيرًا بان الفصاحة ستدين لهم كما دانت للسموأل . والكتاب من الكتب الانتقادية التي يندر وضعها في العربيَّة واندر من ذلك ان تكون من قلم سيدة فقد وضعتهُ السيدة الفاضلة استير موريال وقالت انها اقتطفتهُ من اوثق المصادر فاتت فيهِ ولاسيما في مقدمتهِ والتمهيد الذي وضعتهُ لهُ بما لا يستطيعهُ الاَّ كبار المنشئين وجمعت في فصولهِ من البحث الدقيق والنقد والتحقيق ما لا يستطيعهُ الكاتب الاَّ بعد درس مؤلفات زولا كلها والاطّلاع على اقوال اشهر الكتّاب فيها

وقد اطنبت حضرة الكاتبة في مدح زولا فقالت انهُ كان رب قلم كالسيف وبيان كالسحر وكتابة هي السيل اذا جرف والبحر اذا طمى والرعد اذا قصف والبرق اذا اخذ بالابصار وابهر .

وانهُ الكاتب النحرير والفيلسوف الخطير والرجل المستقيم الذي لا يبارى والشجاع الكريم الذي لا يجارى وانهُ نابغة زمانهِ واعجوبة اوانهِ . وانهُ كان " عدوًّا لليهود لعدم اختبارهِ اياهم واطلاعهِ على طباعهم ومزاياهم ومواهبهم ولعدم معاشرتهِ لفريق منهم فهو لم يكن يعرف عن اليهود سوى ما ارسخهُ القسس في الاذهان عنهم وتناولتهُ السنة العجايز . . . ولما حصلت قضية دريفوس وعرف ظلامتهُ واكتشف على دخائلها وخبآتها انقشع الضباب عن عينيهِ فابصر ورأى اليهود باكثر جلاء فانضح لهُ انهم شعب كغيرهِ من الشعوب لهُ مزايا خصوصيَّة وكمالات ونوافص وانهُ لا يقلُّ عن غيرهِ استحقاقًا ولا يحطُّ ادبًا ولا يسقط امالاً وغريزة . . . فاستبدل العداوة بالشفقة والازدراء بشيء من الاحترام "

وبسطت الكلام على كتب زولا وآرائهِ الاجتماعية وترجمت كتابهُ الذي رفعهُ الى رئيس الجمهورية الفرنسوية في شأن قضية دريفوس . وكأنها جعلت قضيَّة دريفوس محورًا يدور عليهِ كتابها . وشدَّدت النكير على خصومهِ وخصوم دريفوس ووصفتهم بكل وصف قبيح كالرياء والخيانة واللؤم والشر والنفاق . واسهبت في الكلام على وفاتهِ ودفنهِ واقوال الجرائد فيهِ مدحًا وقدحًا . ولامت الجرائد العربيَّة لانها لم تهتم بامرهِ حين وفاتهِ ولامت المقتطف خصوصًا لانهُ ذكر وفاة زولا " في باب المسائل واجوبتها كأنهُ خبر لا يستحق الالتفات لولا سؤال بعض السائلين او كأن تاريخ حياة زولا اقل اهميَّة واحط شانًا من تواريخ بعض ارباب الملايين من الاميركان الذين يصدِّر اعدادهُ احيانًا ببرَهم وصوَرهم ولا فضل لاولئك العجول الذهبيَّة سوى انهم تمكنوا بصبرهم وجَلَدهم واجتهادهم ومساعدة الظروف لهم ان يستولوا على الملايين العديدة في بلاد لا بدَّ لكل مجتهد فيها ان ينال نصيبهُ من الرزق الواسع والثروة الطائلة باسهل ممَّا يمكنهُ ان ينال بلغة من العيش في البلاد الاخرى "

وعسى ان لا يكون تدقيق حضرة الكاتبة في سائر كتابها مثل تدقيقها في هذه الفقرة فان زولا توفي في التاسع والعشرين من سبتمبر والمقتطف يصدر في غرة اكتوبر فاوفقنا طبع المقدمة الاخيرة منهُ ونشرنا ما يحتملهُ المقام من ترجمتهِ في باب الاخبار وجعلنا منعاهُ تلو منعى فركو اكبر علماء اوربا وقبل كل الاخبار العلمية فذكرناهُ بما قلَّ ودلَّ من الالفاظ وقلنا انهُ من اشهر كتَّاب فرنسا في هذا العصر ان لم يكن اشهرهم كلهم وان رواياتهِ انتشرت في الآفاق كما انتشرت روايات ديماس من قبلهِ ووعدنا هناك ببسط الكلام على رواياتهِ واسلوبهِ فيها وفلسفتهِ

هذا من قبيل زولا وترجمتهِ . اما " العجول الذهبية " الذين تشير اليهم الكاتبة سواء كانوا اميركيين مثل كارنجي وركفلر او اوربيين مثل روشيلد وسل رودس فستبقى مدارمهم

ومكاتبهم تنير اذهان الناس وترشدهم الى سواء السبيل بعد ان تلق روايات زولا في زوايا النسيان إما بتغيير منهاج الانشاء وانتفاء طرق جديدة فيهِ او باثبات الضرر لاسلوب التصريح الذي جرى عليهِ . وغرضنا الاول والاهم من نشر ترجماتهم ترغيب الناس في جمع الثروة لانها اضحت قوة لا يارى حتى ان اضعف الشعوب صاروا اعزّهم بها . وحث الاغنياء على انفاق جانب من ثروتهم على الاعمال النافعة لابناء نوعهم كما ينفق المثرون من الاميركيين والاوربيين . وعندنا ان ذلك انفع وابقى من تعليم الناس ان ابنة المرأة من زوجها تشابه عشيقها الذي يقتمها الى صدرهِ ويعطيها من عضلاتهِ وعظامهِ ويغادرها مدموغة بآثار قبلاتهِ ونحو ذلك من الآراء الفاسدة عنّا والشروح المفسدة للاخلاق

ولسنا على رأي المعجبين بكل ما ذكرهُ زولا في رواياتهِ ولا نشير على اولادنا بمطالعتها ولكننا لا ننكر عليهِ المقام الذي رقيهُ بين ابناء لغتهِ . وهذا الكتاب عنهُ غاية في الاجادة . وقد اهدتهُ مؤلفتهُ الى الحسن الشهير اخواجه فيلكس سوارس

تاريخ التمدُّن الاسلامي

الجزء الثاني

لا نتذكر انهُ وقع في يدنا كتاب عربي بعد حضارة الاسلام فيهِ من الفوائد التاريخيَّة التي يودُّ كثيرون الوقوف عليها قدر ما في هذا الكتاب فنهني حضرة مؤلفهِ رصيفنا الفاضل جرجي افندي زيدان صاحب مجلة الهلال بما وُفِّق اليهِ في جمع موادهِ وتنسيقها وبناء الاقيسة عليها

ومدار الكلام فيهِ على ثروة الدول الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين وعصر بني اميَّة وبني العباس فذكر مواردها ووجوه انفاقها بالاسهاب التام في عصر بني العباس لان "الثروة الاسلامية لم تنضج الاَّ في هذا العصر" واثبت جريدة ابن خلدون التي ذكرها في مقدمتهِ لجباية الدولة العباسية في ايام المأمون وجريدة قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتاب الخراج لجبايتها في ايام المعتصم او بعدهُ وجريدة ابن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك وهي عن جباية الدولة في اواسط القرن الثالث

وقد بلغت الجباية حسب الجريدة الاولى نحو ٣٩٦ مليون درهم وحسب الجريدة الثانية نحو ٣٨٨ مليون درهم وحسب الثالثة نحو ٢٩٩ مليون درهم واذا حسبنا كل ١٥ درهماً ديناراً والدينار نصف جنيه فقد كانت الجباية او ايرادات الحكومة سنة ٢٠٠ للهجرة نحو ١٣ مليون جنيه وربع مليون وسنة ٢٢٥ للهجرة نحو ١٣ مليوناً فقط وسنة ٢٥٠ نحو عشرة ملايين لا غير

ونشر القائمة التي عثر عليها البارون فون كريمر وفيها ما اشترطهُ احمد بن محمد الطائي على نفسهِ ان يقدمهُ من ضمانهِ الى بيت المال وما كان ينفقهُ بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٧٩ للهجرة وقد ذكر فيهِ مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك مليونان ونصف من الدنانير او مليون وربع من الجنيهات . وحسب ان ما بقي من الدخل يبقى في بيت المال . قال "ويكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين جنيه" . ثم قال ان مصادر ايراد الدولة كانت في اوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن سالح من نصارى جزيرة العرب ويهودها ولما فتح الشام والعراق ومصر وضع الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة ثم زادت مصادر الجباية رويداً رويداً حتى بلغت احد عشر في ايام بني العباس اوسعها الخراج وكان الاعتماد عليهِ وانحط ايراد الدولة حتى بلغ سنة ٣٠٦ للهجرة ١٤ مليون دينار ونصف مليون اي نحو سبعة ملايين من الجنيهات على ما في تقرير الوزير علي بن عيسى الذي رفعهُ الى المقتدر

واسهب في الكلام على زيادة الايراد في القرون الاولى ونقصهِ بعد ذلك وذكر لتلك الزيادة ولهذا النقص اسباباً كثيرة . ويظهر لنا ان السبب الاوجه هو ان العرب دخلوا بلاداً عامرة كثيرة المال فنزف المال منها رويداً رويداً لانهم لم يعتنوا الاعتناء الواجب بعمارتها واستخراج خيرات ارضها فقلت خيراتها في عهدهم وقلَّ سكانها ايضاً . اعتبر ذلك بما اثبتهُ من ان جباية مصر كانت في زمن الخلفاء الراشدين ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار وجباها عبد الله بن سعد في ايام عثمان ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار ولكنهُ استعمل العنف في تحصيلها ثم انحطت جبايتها في ايام بني امية الى ٣٠٠٠٠٠٠ دينار وفي ايام المماليك الى نحو ١٠٠٠٠٠٠ دينار

ويمتاز هذا الجزء عن الجزء الاول باسناد كل ما جاء فيهِ الى المصادر التي نُقل عنها ولقد اصاب في ذلك غاية الاصابة . وفيهِ مئة وتسعون صفحة بقطع الهلال مفعمة بالفوائد التاريخيَّة

اسرار الارتقاء

ترجمهُ عن الانكليزيَّة حضرة المحامي الفاضل توفيق افندي دوس وقال في تمهيد وضعهُ لهُ انهُ طالعهُ في زمن الفراغ فوجدهُ ملؤهُ الفائدة الحقيقية ثمرة التجربة والاختبار فودَّ نقلهُ الى العربية عسى ان يستفيد منهُ بنو جلدتهِ ما استفادهُ منهُ هو . ولم نرَ الاصل حتى نقابل الترجمة بهِ ولكن يظهر لنا من مطالعتهِ ان المترجم راعى الاصل واضاف اليهِ اموراً تنتظم معهُ ويدعو

المقام اليها . والمؤلف وليم كوبت من ارباب الانشاء عند الانكليز ولهُ مؤلفات عديدة سيف مواضيع شتَّى وكتابهُ هذا من نخبتها ويصحُّ ان يقال فيهِ انهُ خزانة حكمة عمليَّة على ما ظهر لنا من الصفحات التي تصفحناها منهُ . وكثير من نصائحهِ معلوم مبتذل لكن لايخلو ذكرهُ من فائدة لان القارئ اذا رأى ان رأي الكاتب يطابق رأيهُ واخباره زاد بهما تمسكاً واقتناعاً . وفيهِ امور اخرى غير مقارنة للصحة كنصحهِ للمرء ان لا يستحسن اقوال المؤلفين وكتاباتهم لان رجلاً فاضلاً مدحها لهُ بل ان يقرأها بامعان وتفكر ولا يقضي عليها الاَّ بما يظنهُ هو رغماً عن كل ما يخالج فكرهُ من قول زيد وحديث عمرو من الكتَّاب العظام . فان هذه النصيحة مخالفة لروح الكتاب كلهِ التي مدارها ان يستفيد المرء من اختبار غيرهِ . والقصَّة التي سردها على اثر ذلك لا يصحُّ ان يبنى عليها حكم عام مثل هذا لان حادثة واحدة او حوادث قليلة لا تقوم مقام الاستقراء التام . كذلك قولهُ عن ارضاع الاطفال فانهُ بالغ فيهِ وارتكب الشطط . ونسبة الكتاب الى القواعد الفلسفيَّة التي توضع الآن للتربية كنسبة كتب الطب القديمة المبنيَّة على التجارب الى كتب الطب الحديثة المبنيَّة على النظريات العلميَّة . وهذا لا يقدح في الكتاب ولا يقلل نفعهُ فنثني على مترجمهِ لاجل الغيرة التي دفعتهُ الى ترجمتهِ

مذاكرات جمعية ام القرى

هو فصول نشرت اولاً في مجلة المنار الاسلامية بمصر مدارها البحث عمَّا اصاب اهل الاسلام من الفتور وعن العلاج اللازم لهُ . اما سبب هذا الفتور فقال فيهِ احد اعضاء تلك الجمعية ما نصهُ " اني ارى منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الامة جبرية باطناً قدرية ظاهراً . ومثل الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والاكتفاف من الرزق واماتة المطالب النفسية كحب المجد والرئاسة والتباعد عن الزينة والمفاخر والاقدام على عظائم الامور وكالترغيب في ان يعيش المسلم كميت قبل ان يموت . وكفى بهذه الاصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات لا يرتضيها عقل ولم يأتِ بها شرع ولعلها نفى عثمان بن عفان رضي الله عنهُ ابا ذر الغفاري الى الربذة "

وقال آخر " ان سبب الفتور هو تحوُّل نوع السياسة الاسلامية حيث كانت نيابيَّة اشتراكية اي ديمقراطية تماماً فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية ثم صارت اشبه بالمطلقة . وقد نشأ هذا التحوُّل من ان قواعد

الشرع كانت في الاول غير مدونة ولا محررة بسبب اشتغال الصحابة المؤسسين بالفتوحات وتفرقهم في البلاد فظهر في امر ضبطها خلافات ومباينات بين العلماء وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الاخذ بما يلائم نزعاتهم الوثنيَّة وليتهم لم يدنسوا الاسلام بالدخول فيهِ فاتخذ العمَّال السياسيون ولاسيما المتطرفون منهم هذا التخالف في الاحكام وسيلة للانقسام والاستقلال السياسي فنشأ عن ذلك ان تفرَّقت المملكة الاسلاميَّة الى طوائف متباينة مذهبًا متعادية سياسة متكالحة على الدوام وهكذا خرج الدين من حضانة اهلهِ وتفرقت كلمة الامة فطمع بها اعداؤها وصارت معرضة للمحاربات الداخلية والخارجيَّة معًا لا تصادف سوى فترات قليلة تترقَّى فيها العلوم والحضارة على حسبها. وقد اثَّر استمرار الامَّة في هذه الحروب ان صارت باعتبار الاكثريَّة امَّة جندية صنعة واخلاقًا بعيدة عن الفنون والصنائع والكسب بالوجوه الطبيعيَّة. ثم بسبب فقدان القوَّاد والمعدات لم يبقَ مجال للحروب الرابحة فاقتصرت الامة على المدافعات خصوصًا منذ قرنين الى الآن اي منذ صارت الجندية عند غيرنا صفة عليَّة مفقودة عندنا فصرنا نستعمل بأسنا بيننا فنعيش بالتغالب والاحتيال لا بالتعاون والتبادل وهذا شأن يميت الانتباه والنشاط ويولد الخمول والفتور"

فقال آخر "ان غيرنا من الاقوام كجرمانيا مثلاً وجدوا في حكومات مطلقة وفي اختلافات مذهبية وفي انقسامات الى طوائف سياسية وفي حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام فلا بدَّ للفتور في المسلمين من سبب آخر. وفي ما اتصور ان بلاءنا من تأصل الجهل في غالب امرائنا المترفين الذين ضلوا واضلونا سواء السبيل"

وقال آخر "ان القاء التبعة على الامراء خاصة غير سديد لان امراءنا ان هم الاَّ لفيف منا فهم امثالنا من كل وجه وقد قيل كما تكونوا يولَّى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى لم يكن امراؤنا مدنفين. وعندي ان البلية هي فقدنا الحرية وما ادرانا ما الحرية هي ما حرِّمنا معناهُ حتى نسيناهُ وحرم علينا لفظهُ حتى استوحشناهُ. وقد عرَّف الحرية مَن عرَّفها بان يكون الانسان مختارًا في قولهِ وفعلهِ لا يعترضهُ مانع ظالم. ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة بالحق وبذل النصيحة. ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية. ومنها العدالة باسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم او غاصب او غدَّار مغتال. ومنها الامن على الدين والارواح والامن على الشرف والاعراض والامن على العلم واستثمارهِ فالحرية هي روح الدين. وينسب الى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي

وما الدين الاّ ان تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فقد حصر هذا النصحابي الدين في اقامة الشرع والامن . هذا ولا شك ان الحرية اعز شيء على الانسان بعد حياته وان بفقدها تفقد الآمال وتبطل الاعمال وتموت النفوس وتتعطّل الشرائع وتختل القوانين . . . وقد كثرت القرون وتوالت البطون ونحن على ذلك عاكفون فتأمل فينا فقد الآمال وترك الاعمال والبعد عن الجد والارتياح الى الكسل والهزل والانغماس في اللهو تسكيناً لآلام اسر النفس . . . وصرنا نغضب ونحقد على من يذكرنا بالواجبات التي تقتضيها الحياة الطيبة لعجزنا عن القيام بها عجزاً واقعياً لا طبيعياً

هذا ونعترف ان فينا بعض اقوام قد الفوا من الوف سنين الاستعباد والاستبداد والذل والهوان فصار الانحطاط طبعاً لهم تؤلمهم مفارقته وهذا هو السبب في ان السواد الاعظم من الهنود والمصريين والتونسيين صاروا بعد ان نالوا رغم انوفهم الامن على الانفس والاموال والحرية في الآراء والاعمال لا يرثون ولا يتوجعون لحالة المسلمين في غير بلادهم بل ينظرون الى الناقمين على امرائهم المسلمين شزراً وربما يعتبرون طالبي الاصلاح من المارقين من الدين كأن مجرّد كون الامير مسلماً يغني عن كل شيء حتى عن العدل وكأن طاعته واجبة على المسلمين وان كان يخرب بلادهم . والحاصل ان فقدنا الحرية هو سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور "

وتلاه اثنان شدّدا النكير على امراء المسلمين الذين هذه صفتهم وقال احدهما " ان ملوك الاجانب افضل منهم واولى بحكم المسلمين لانهم اقرب الى العدل واقامة المصالح العامّة واقدر على عمارة البلاد وتربية العباد . وقد افتخر النبي عليه السلام بانهُ وُلِدَ في زمن كسرى انوشروان عابد الكواكب فقال ولدتُ في زمن الملك العادل . وحكى ابن طباطبا في الآداب السلطانية والدول الاسلامية انهُ لما فتح السلطان هلاكو (وهو مجوسي) بغداد سنة ٦٥٦ امر ان يستفتى علماؤها اي الرجلين افضل السلطان الكافر العادل ام السلطان المسلم الجائر . فاجتمع العلماء في المستنصرية لذلك فلما وقفوا على الفتيا احجموا عن الجواب حيث كان رفي الدين علي بن طاووس حاضراً وكان مقدّماً محترماً فتناول الفتيا ووضع خطهُ فيها بتفضيل الكافر على المسلم الظالم فوضع العلماء خطوطهم بعدهُ "

وذكر غيرهم غير ذلك من العلل حتى ابلغوها ٨٦ علّة واشاروا بما تداوى به حتى جاؤوا على اكثر مقوّمات الحضارة وقالوا انهم ألّفوا جمعية ام القرى للنظر في ذلك واصلاح حال المسلمين